الإمبراطور الأخير كان يردد أن 95 % من الشعب الإيراني يؤيده وأن المتطرفين فقط هم من يعارضونه

«سقوط السماء» .. قصة نهاية حكم أسرة بهلوي في إيران

■ صدام حسين حاول إقناع حاكم إيران بمواجهة المتظاهرين بالدبابات لأن «قتل ألف إيراني اليوم أفضل من موت مليون فيما بعد» !

بعد نحو 39 عاما من المظاهرات الشعبية التي أنهت حكم الشاه في إيران، وأسست لحكم الملالي تحت لافتة «الجمهورية الإسلامية الإيرانية» عام 1979 ـ تشهد اليوم المدن الإيرانية مظاهرات قوية للمطالبة بسقوط نظام الحكم القائم بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية والقمع السياسي.

المشهد الحالي في إيران يبدو، إلى حد كبير، وكأنه استنساخ لمشهد مشابه حدث قبل نحو 39 عاما، وبالتحديد في نوفمبر 1979 عندما اندلعت المظاهرات في كل انحاء إيران ضد الشاه وحكمه بسبب تداعي الأوضاع الاقتصادية والحريات، حيث طلب السفير الأمريكي في طهران من رؤسائه في العاصمة واشنطن تعليمات بشأن التعامل مع الموقف القابل للتصعيد، في حين أبلغ مستشار الأمن القومي الأمريكي في حينه الرئيس جيمي كارتر، بأن التقارير ذات الصلة القادمة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «سي آي إيه» تقول إنه على الرغم من كل شيء فإن حكم الشاه يبدو صلبا ولا داعي للقلق ولا داعي للتفكر في السؤال الذي طرحه السفير الأمريكي لدى طهران حول سبل إجلاء الرعايا الأمريكيين من ايران في حال تداعي الموقف، وذلك قبل أيام قليلة من اضطرار الشاه الأخير محمد رضا بهلوي قبول فكرة التخلي عن الحكم لصالح حكومة عسكرية ثم الاستعداد بعد ذلك لمغادرة طهران، لا يحمل هو وزوجته فرح ديبا، وباقي الأسرة سوى ملابسهم ومتعلقاتهم الشخصية، بحسب الرواية الواردة في كتاب «سقوط السماء» الصادر عن دار هنري هولت. للكاتب اندرو سكوت كوبير المتخصص في الشئون الإيرانية.

كتاب كوبير الواقع في قرابة 450 صفحة من القطع الكبير، مقسم إلى 25 فصلا، ويقوم على روايات متتالية للأحداث كما سمعها من العديد من هؤلاء الذين عايشوا الأحداث سواء في إيران نفسها، أو في العواصم الغربية المعنية بتفاصيل نهاية حكم الشاه.

ينقل كوبير في كتابه «سقوط السماء» عن الإمبراطورة الأخيرة للبلاد نفيها القطعي لصفات القمع والعنف والاستبداد عن زوجها، حيث تصر على أن الشاه ـ الذي مات في مصر متأثرا بمرض السرطان بعد سنوات خمس من تشخيصه ـ لم يكن يعلم تفاصيل ما كانت تقوم به الأجهزة الأمنية بحق المعارضين، بما في ذلك عمليات الإخفاء القسري والتعذيب، التي رصدتها منظمات دولية وصحف عالمية كبرى والتي وصفت نظام الشاه قبل سنوات قليلة جدا من سقوطه بأنه من أكثر النظم السلطوية قمعا في المنطقة وأشار بعضها إلى أن المعتقلين السياسيين في إيران في منتصف السبعينيات تراوح عددهم بين 25 ألفا و100 ألف، بينما كان هناك نحو 300 ألف يلقى بهم في السجون ويخرجون قبل أن تعود أبواب السجون لتبتلعهم مرة أخرى بموجب قرارات قضائية أثارت الكثير من التساؤل حول نزاهة القضاء، وهو الأمر الذي عاد الشاه مع قرب سقوط حكمه ليعترف بالحاجة للتحقيق فيه والنظر في سبل إصلاحه.

ولا يقصر كاتب «سقوط السماء» في تصوير معارضي الشاه على كونهم من الإسلاميين، ويقول إن بهلوي كان يدرك خطورتهم على مصير الشرق الأوسط، وكان يسعى لتحجيم ما قد يلحقونه بالبلاد من سلطوية دينية متشددة يتم عنها خطاب قادتهم، إلا أن الكاتب في الواقع يسعى من خلال صفحات كتابه لأن يترك لدى القارئ انطباعا بأن الشاه كان يسير نحو التنوير بينما الإسلاميين المعارضين له والذين يتقوقع قادتهم في «قم» وبعضهم في العراق ويهددون استقرار المنطقة إلى الدرجة ـ بحسب رواية كوبير ـ التي دفعت الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين للقيام بزيارة سرية إلى إيران في أعقاب إعلان الشاه نيته التنازل عن الحكم، بعد فشل وعود الإصلاح السياسي والتحسين الاقتصادي، ليقترح على الإمبراطورة فرح أن تقنع زوجها بأن «يحرك دباباته وجنوده ضد الثوار ليقتلهم لأنه من الأفضل أن يموت ألف إيراني اليوم بدلا من أن يموت مليون إيراني فيما بعد».

ولكن الشاه الأخير ـ حسب رواية الإمبراطورة الأخيرة ـ لم يكن ليقبل أن يقدم على ذلك، خاصة أنه كان أسير المرض الذي يهاجمه بضراوة إلى جانب اليأس والإحباط اللذين سيطرا على الإمبراطور الأخير، بحسب ما نقله كوبير عمن تحدث إليهم في أثناء رحلة الإعداد للكتاب.

وكان الشاه يقول لبعض محدثيه إن الشعب الإيراني لم يقدر ما قام به لكي تتبوأ إيران مكانة تليق بعظمتها وسط الأمم، ولا ما قام به ليمنح شعبه الاستقرار ويبعد عنهم الإسلاميين أو الشيوعيين المتحالفين معهم «والذين كان يطلق عليهم السود والحمر» ، على خلاف حال حليفه الراحل الرئيس أنور السادات الذي استضافه في مصر بعد خروجه من إيران . فقد لجأ السادات إلى الإسلاميين للخلاص من اليساريين.

كما قلل الشاه حتى قبل سنوات قليلة من سقوط حكمه مقتنعا بأن أكثر من 95% من الشعب الإيراني يحبونه ويدعمونه، بل وكان يشير لهم على أنهم «أبناؤه» ، كما أنه كان يقول دوما : «إذا ما قامت ثورة في إيران فسأكون أنا قائد هذه الثورة» .

غير أن كوبير في كتابه نقلا عمن تحدث معهم من الدبلوماسيين ينقل صورة مخالفة عن تلك التي تحدثت بها فرح ديبا، حيث الشاه حاكم دكتاتوري دموي لا يعبأ إلا ببقاء حكمه ولا يتردد في تصفية من يعارضه، دون أن يعني ذلك شيئا كثيرا لتعاملات العواصم الغربية معه لأن الفائدة الاقتصادية التي تجنيها هذه العواصم هي دوما العنوان الطويل لعلاقاتها بهذا الدكتاتور أو ذاك.

وأفرد كوبير في كتابه فقرات غير قليلة للثناء على الصفات الاستثنائية التي تتمتع بها فرح ديبا بالمقارنة بزوجتي الشاه السابقتين ثريا اسفنديارى والأميرة فوزية أخت الملك فاروق، فإنه في الوقت نفسه ينقل عبر اشارات هنا وهناك مقارنات كان البعض يعقدها بين الشهبانو وبين ماري انطوانيت زوجة آخر ملوك فرنسا والتي انتهى بها الحال نهاية اليمة بعد الثورة الفرنسية ـ لافتا في الوقت نفسه إلى أن فرح ديبا كانت تنفي ما تقول إن المتشددين أرادوا عمدا تشويهها به، وذلك بحديثهم عن ميلها إلى البذخ والإسراف بينما هي ـ حسب الرواية الواردة في كتاب كوبير ـ عكس ذلك تماما، وكانت تسعى لتحرير المرأة الايرانية ومنحها حقوقا مجتمعية وسياسية جنبا لجنب مع الشاه الساعي لنهضة إيران، دوما بحسب نفس الرواية التي ينقلها كوبير.

وكما تنفي فرح ديبا عن نفسها الميل للبذخ فهي تنفيه أيضا عن زوجها في إشارات متتالية ينقلها كوبير، ولا يخلو بعضها من طرافة، حيث تقول إنه لم يكن يكن يعني كثيرا بملبسه ولم يكن له ميل لاقتناء الكثير من الأشياء اللهم إلا ١٩ سيارة رياضية وعددا من الخيول الفارسية والعربية.

كما أنها أيضا تنفي عن زوجها ـ وكذلك عن نفسها ـ الافتقار للتدين، وتصر على الإشارة إلى أن الشاه، الموصوف بحكم الدستور الإيراني براعي الإيمان الشيعي، كان شديد التعلق بالدين، وكان دوما حريصا على وضع مصحف صغير في جيب سترته بل إنه كان يعود لغرفته في قصره لو أنه يوما غفل عن نقل المصحف من جيب سترة الأمس لسترة اليوم.

ولكن خيارات الشاه ـ كما ينقل كوبير نفسه ـ في الحكم لم تكن منبعثة من مواقف إيمانية أو لا إيمانية وإنما كانت ناتجة عن إدراك واقعي لرجل وصل أبوه لحكم بلاده عبر تنفيذ انقلاب في منطقة من العالم لا تندر فيها الانقلابات العسكرية ويعقبها دوما ـ كما هو في حال حكم الشاه الأخير لإيران ـ الكثير من التشكك من قبل الرجل الذي وصل إلى سدة الحكم عبر انقلاب وكبار ضباطه بل والجيش بصفة عامة.

وينقل كوبير واقعة سؤال طرحه صحفي امريكي على الشاه ذات مرة حول ما يعتبره له أن يكون حاكما لإيران، فما كان من الامبراطور إلا أن ضغط على شفتيه وأجاب بكلمة واحدة مقتضبة: الخطر!

إحساس الشاه بالخطر الدائم، أمر يستشعره القارئ بالتأكيد وهو يطالع تفاصيل ينقلها الكاتب حول الترتيبات الأمنية الخاصة بالرجل، وخصوصا عندما يعلم أن الرجل لم يكن يتناول طعامه قبل أن يتذوقه من هو قيد التضحية بالحياة في حال وجود سم قد دس في هذا الطعام.

الشاه ـ بحسب رواية أساسية في كتاب كوبير ـ كان طفلا حزينا مريضا وخجولا، ونشأ وهو يعلم أن مصيره لحكم بلاده العظيمة فما كان منه إلا أن يسعى دوما لإخفاء مشاعره، وهو أمر لم يكن دوما في قدرته، إذ لا يمكنه السيطرة على هذه المشاعر فقد كانت هناك احوال يظهر فيها تأثره الشديد، وهو ما جعله يبدو دكتاتورا قاسيا، وهي الصورة التي يبدو أن الشاه كان مقتنعا ـ بحسب كتاب سقوط السماء ـ أنها جاءت نتيجة نفي الخوميني «الذي سعى لأن يصور نفسه على أنه رجل الله بينما الشاه هو الملك المستبد». غير أن نظام الشاه كان يراهن على أنه كلما طال إبعاد الخميني عن البلاد فإنه حتما وبعد بعض الوقت سيفقد تأثيره على عقول قطاعات الشعب الإيراني التي كانت متأثرة به منذ أن أطلق أولى دعواته للشعب الإيراني بالثورة على الشاه في عام 1971.

ويلفت كوبير في كتابه لنقطة تقاطع مهمة في المبارزة السياسية بين الشاه والخوميني، وهي النقطة التي أفضت إلى انتصار الأخير وهي ورقة الدين، حيث إن الشاه كان يصف نفسه دوما بأنه الحامي للإيمان الشيعي وأن حكمه هو هبة إلهية وأنه معنى بدعم العلماء وافتتاح أكبر وأجمل المساجد في طهران».

إلى ذلك يصطحب كوبير في صفحات متتالية من كتابه القارئ في جولة حول تضاريس متعرجة لدائرة الحكم في ايران، يدخلها ويخرج منها معاونون للشاه أحيانا في إطار صفقات، وفي إطار من الثقة والخيانة في أحيان أخرى.

كوبير أيضا يصحب القارئ في جولة مهمة في أروقة القيادات الشيعية في إيران، مشيرا إلى التقارب والتنافر فيما بينها، مظهرا لحظات تعاونها ضد الشاه ولحظات انقسامها حول القرار السياسي سواء ما خص التعامل مع حكم الشاه أو غيره، ومن أكثر الصفحات تشويقا في هذه المساحة تلك المتعلقة بعلاقة بني صدر والخوميني والتي يلمح فيها كوبير إلى أن بني صدر كان له دور رئيسي في جعل الخوميني عنوانا للثورة الإيرانية قبل عشر سنوات كاملة من وقوعها، مشيرا إلى تلك العلاقة التي يلمح الكاتب إلى أنها كانت شديدة الالتباس بين موسى الصدر الذي انتهى به الحال في زيارة غامضة إلى ليبيا في أثناء حكم دكتاتور ليبيا معمر القذافي ولم يظهر أبدا بعدها ولم يكشف أحد حقيقة نهايته المحاطة بالأسئلة اللانهائية.

وبالإضافة إلى ذلك ينقل الكتاب صورة معقدة للسياسة الخارجية لطهران في السنوات الأخيرة من حكم الشاه خاصة فيما يتعلق بتلك العلاقة المعقدة مع واشنطن، خصوصا في أثناء حكم الرئيس الديمقراطي جون كنيدي الذي كان الشاه يقول إنه يقحم نفسه في الشئون الداخلية لإيران وشعر بسعادة كبيرة عند اغتياله، والعلاقة مع إسرائيل التي كان حاكم ايران يراها جزءا غير قليل من اسباب تحسين علاقته مع الولايات المتحدة الأمريكية.

القصة الأهم التي يمكن لقارئ كتاب «سقوط السماء» ليست سوى القصة التقليدية لتوجه حاكم ممتلك للسلطة عبر أدوات أمنية عتيقة وخطاب يتمايل بين الديني والإصلاحي أحيانا، ويجمع بينهما عمدا في أحيان أخرى، وهو ما أوقعه في فخ قرارات اقتصادية اتخذها بترويج من الأنظمة على أنها خيار التنمية والنهضة الحتمي لمواجهة الإفقار الذي جاء نتيجة معدلات مرتفعة بشدة من الزيادة السكانية.. وأن هذا السقوط يأتي على الرغم من وجود علامات عديدة تدل على أنه قادم، أو ربما تكون ـ كما يوحي كوبير لقارئ ـ علامات مضللة يرسمها ويروج لها معارضون متشددون يريدون هم السقوط بالبلاد والشعب في هوية التشدد الديني وتراجع التنمية والدور الإقليمي.

فالشاه الذي لم يكن معجبا بالضرورة ـ بحسب كتاب كوبير ـ بالنمط الغربي للديمقراطية ولم يكن واثقا من أنه يتماشى مع أولويات ومتطلبات «شعبه» كان متحيرا هل يتحالف مع الغرب حيث كان دوما ولاؤه وحيث وجد الدعم والسلاح وأيضا العلاج أم ينفر من الغرب وينفر شعبه منه بوصفه استعماريا يريد النيل من كرامة الشعب الإيراني واستقلالية قراره؟.

ولكن ما طرحه الشاه لم يلق الصدى الذي كان يأمله في أول «جُمعة» في نوفمبر من 1978 ـ الموصوفة تفاصيلها في الفصل المعنون بـ«الجمعة السوداء» في كتاب كوبير ـ فقد تظاهر أكثر من 15 ألف ايراني في شوارع البلاد غير مرتدعين بتواجد عسكري مكثف بل ورافعين هتاف: الجندي شقيق المواطن ولا يطلق النيران عليه، وهو الهتاف الذي لقي استحسانا غير قليل من عدد من الجنود المنتشرين لحماية النظام.

وعلى الرغم من إعلان الأحكام العرفية وعلى الرغم من الخطاب الذي ألقاه الشاه بهدف إثارة مشاعر التعاطف من الشعب فقد استمرت الثورة الإيرانية وسقط حكم الشاه، وأجلت إسرائيل مواطنيها وأنهت وجود شركة طيران العال الإسرائيلية في طهران بينما ارتبكت الولايات المتحدة وتدهورت الأمور نحو أزمة كارثية لاحتجاز رهائن في السفارة الأمريكية في طهران وما أعقب ذلك من تداعيات على العلاقات الأمريكية مع إيران ومع مجمل الشرق الأوسط وهي التعقيدات التي مازالت تداعياتها متتالية حتى يومنا هذا.

عن «الشروق» المصرية

■ المخابرات الأمريكية أبلغت الرئيس كارتر بأن نظام حكم الشاه صلب ولا داعي للقلق عليه من المظاهرات

الكتاب في سطور

العنوان: سقوط السماء
المؤلف: اندرو سكوت كوبير
دار النشر: دار هنري هولت
عدد الصفحات: 450 صفحة من القطع الكبير

حديث شائك

هل الحب حالة أم احتياج ؟ 2 - 2

د . إيناس عمر

صباحكم زهرة يانعة تستقي سحرها من إطلالتكم
اليوم نكمل حديثنا عن الحب
وحيث توقفنا
تركنا هناك سؤالا قائما بذاته
هل ندفع الآخرين لأن يحبونا ؟
هل هناك تعمد في الحب ؟
أم أن هناك بعض الأشخاص خلقوا لكي نحبهم قسرا ودون توقف ؟!
ربما كان هناك تعمد في حب "الحاجة" . قائم على الفقد والرغبة . ويغذيه الإشباع و الارتواء.
أما حب "الحالة" فهو حب تجد النفسا غارقين فيه حتى النخاع بلا سابق إنذار .
تتعمق وتذوب بلا منطق يتخللنا الشعور بلا تعمد . نفقد النفسا بين حرفين عذبتهما النفه كثيرا بلا مبرر .
وبلا جدل نعم هناك أشخاص قد نحبهم قسرا ودون توقف ..
فهنالك قلوب تظمأ بها الكلمات .
وأخرى لا نرتوي منها أبدا .
انها الأرواح الدافئة حيث تقمرنا السكينه خلالهم .
ولست ادري هل المتعة في ذات الإحساس المتشح بالآلام ؟
أم ان النفس المتجددة لا تملك لنفسها منه فكاكا ؟
وربما هو سحر ما يأسرنا .
ويغمرني السؤال فأستفتي قلبي ليجيبني

حد العمق : تتنفس الحل ولسنا ندري حقاً لماذا نهوى شخصا بذاته ؟
ما المبهج في الحب ؟
دعونا نخض معا تجربة لاعمه كالحب ذاته !
فقط عزيزي القارئ أغمض عينيك وتخيل معي .
زهرة فواحة العطر بارعة الجمال .
ما الذي يعجبك فيها أكثر ؟
هل هو هذا الشذى الآخاذ أم ذات السحر المريك ؟
لو تركتم لي هذه الفرصة لاسترسلت في فلسفتي عن الحب
فانا ارى أن ما راقكم حقاً .
هو هذا الشعور المبهج الذي نال منكم حين غمركم عطر الزهرة و روعتها .
انه حتما ذات الشعور الذي ينتابه لك الحب من خلال شخص بذاته .
هذا الاحساس الذي يتخللنا فيجعلنا نحب النفسا أكثر بعضهم دون سواهم .
لذا نجد دوما لكل منا زهرته المفضلة ..
فالحب زهور من نوع آخر
والشائق في الامر أن الحب يبدو احيانا كمرض من نوعا ما .
فهل للحب اعراض ؟!
الممتع في الامر أن اعراض الحب دافئة مثله .
تصيب الجسد فتجعله يبدو اكثر إشراقا .
فهو يسري فينا كخفقة متدفقة .
مع اتساع حدقتي العين لتتشبع بتفاصيل المحبوب وتهب منه حد الثمالة .

وازدياد خفقان القلب مع انبعاث عرق غزير كنوع من الخجل .
واحمرار في الوجه والصدر .
ويكثر إفراز الغدد الزيتيه بالشعر فيضحي اكثر لمعانا ..
هو صياغه الجسد للجمال في حضرة الحب . هو رغبة في ان تبدو اكثر بهاء في عين الحبيب .
الحب مرض مريك حقاً .
انه يدفعنا لنبدو أجمل !
ومن تساؤل لتساؤل اخر نتجرف نحو السؤال الاعمق :
من اين ينشأ الحب ؟
الحب قطري ازلي وهو نوع من التجاذب الوجداني والجنسي عند البشر .
نشريكين ينحشان عن التكامل وكأن الإنسان خلق ناقصا عمدا .
وارتبط بالأذهان ان القلب هو العضو المسؤل عن الحب ..
فإن هو ليس الا .
فالعقل يا ساده هو سيد القرار .
والأمر رهن للهرمونات والإشارات العصبية التي ترسل من وإلى العقل .
فالعين تعشق والأذن تعشق .
والقلب هو فقط رمز الحب !!
وقد أيقن العلماء أن هرموني "الدوبامين"
و"نوربيبنفرين" هما المسؤلان عن الحاله الشعورية الرومانسية في التلذذ بتفاصيل الحبيب .

ووجد أنه عند إطاله النظر للحبيب يحدث تدفق دموي غزير غني بالاكسجين للمناطق المسئولة عن المشاعر الإيجابية ..
وهذا يفسر سر المتعة التي تغمرنا حين ننظر لمن نحب .
غير أن الحب كالبحر قد يلفظنا .
ولكننا نبقى دوما أسراه ..
و كمقولتي الأقرب للقلبي :
"التائب عن الحب كمن لا روح له" !
فهل نملك حقاً أن نتوب ؟
فحياة القلب ونبضة هوى يتدفق .
وتظل أبد الدهر حيرى ما بين .
عقل يفكر .
وقلب يعشق .
وقدر يتخير لنا .
وإلى لقاء آخر بين أروقة عقلي وحديث شائك .